النصوص القرائية وطاقتها الحوارية وفضاؤها التأملي

للصفين الرابع والتاسع الأساسيين

دنيا الأمل إسماعيل

في حياة كثير منا إضاءات معرفية خفية وعلنية تعود إلى سنوات الدراسة الأولى، حيث الانفتاح على العالم والذات، تمر عبر الحساسية المتوقدة والحماسة الممزوجة برهبة العلم ومحبته.

لدينا جميعاً ذكريات جميلة، حتى لو كان بعضها مؤلماً في مدرستنا الأولى ومع مدرسينا الأوائل.. أولئك الذين زرعوا فينا بعضاً من أرواحهم، ونزعوا منا بعضاً من أرواحنا لنكتشف بعد سنوات أخر.. أن الألم والمعاناة (وهما هنا ليسا ماديين بل معرفيان) علّما فينا بذائقة متميزة.

واليوم بعد أن صرنا أمهات وآباء.. نطمح لأبنائنا بنصيب أوفر من العلم والمعرفة بحساسية مفرطة تجاه الأشياء والعالم، تجعل من حياتهم إبداعاً دائماً ومتميزاً.

وكفلسطينيين لم يكن لنا في السابق منهاجنا الخاص.. عانينا من غيابنا الفيزيائي والمعنوي في نصوصنا.. وتماهينا مع نصوص وتطلعات وطموحات الآخرين (مصر – الأردن)، ويأتي يوم.. نسعى فيه ليكون لنا مشروعنا التربوي، التعليمي الخاص.. خارجاً من دمنا وطيننا إلى سماء لا ريب في انفتاحها وانعتاقها من أسر قيود سياسية أو اجتماعية أو دينية.

لا شك أن كثيرين مثلي يثمنون عالياً الرغبات والجهود ويقدرون باحترام الخطوات المتنامية نحو منهاج وطني فلسطيني نابع من قلب الثقافة الفلسطينية والمجتمع الفلسطيني بتراثه وقيمه وديناناته، معبراً عن مظاهره الجمالية اجتماعياً وثقافياً وتاريخياً، ويساعد على إذكاء شخصيته وتنمية مكانتها الإبداعية وإرادتها الفاعلة وقدرتها على النقد الواعد.

من هنا تأتي أهمية أن نتعمّق سويّة، أفراداً ومؤسسات، في بنية هذه المناهج وتوجهاتها، وإمكانية إجراء التعديلات عليها، بحيث تستوعب التغيرات والتطورات التي تلحق بمجتمعنا الفلسطيني وثقافته، مع ضرورة توافقها مع المراحل العمرية المختلفة للطلبة.

وبما أن الورقة خاصة أساساً بالصفين الرابع والتاسع، سأذكر أهم الملاحظات التي استوقفتني خلال تتبعي لمنهاجي هذين الصفين:

كتاب اللغة العربية للصف الرابع

يساهم المحتوى التعليمي للكتاب في التنشئة الاجتماعية للطلاب والطالبات، ويقدم لهم نماذج إنسانية حية ومتميزة، كما في الدرس الأول «العائلة السعيدة» الذي يعزز من قيمة الإيثار.

ويعتمد الكتاب النص ركيزة تعليمية له دون استفادة حقيقية من القاعدة البيداغوجية التي تقول (علّم الأطفال وهم يلعبون)، إذ نلحظ فقراً في هذه الوسائط والمواد من صور وأشكال ورسوم اللازمة لذلك. ويتسم بناء النصوص ببساطة مفرطة، معتمداً أسلوب السرد، الذي لا يتيح للطالب/ـة الاشتراك في حوار ديناميكي مع النصوص، وتقيد تفكيره/ها في دائرة مغلقة لا تخرج عن حدود النص المكتوب، ما يعيق التفكير الإبداعي الحر وبناء الاستنتاجات بما ينمّي شخصيته ويطوّر من وعيه وقناعاته.

ولا يتيح بناء النصوص في الكتاب مجالاً للمعلم للمبادرة في تعليم هذا النص أو ذاك من خلال التعمق في المضمون الذي يحمله النص والبناء عليه، بل على العكس من ذلك، إذ تشير النصوص إلى سذاجة ومباشرة مفرطة تتناقض مع تصاعد قيمة التساؤل عند الطلبة في هذه المرحلة.

هناك تشتت واضح في منهجية الكتاب من درسه الأول حتى الأخير، إذ تتعدد المرجعيات الثقافية والدينية والأيدلوجية دون التقاط الخيط الناظم الدقيق بينها، فيما تختفي المرجعية الوطنية بشكل واضح، إلا كإشارات في نصين؛ أحدهما له علاقة بالتاريخ الفلسطيني القديم (صلاح الدين الأيوبي)، والآخر يشير إلى أحد جزيئات الثقافة الفلسطينية (أمثال شعبية فلسطينية).. وهذا يتناقض مع فلسفة التعليم في هذه المرحلة التي تسعى في أحد مساعيها إلى تعزيز قيمة الانتماء والمشاركة وبناء المواطن السليم.

هذا التشتت عكس نفسه في غياب التكامل والتصاعدية في نصوص الكتاب من خلال الاعتماد على أسلوب التلقي السلبي، ما أخفق في تشكيلها نسقاً معرفياً قابلاً للنمو والتطور، ومن ثم تصعيد درجة الإبداعية، سواء من حيث الملكة النثرية، أم الذائقة الجمالية.

أما بالنسبة للتدريبات العملية التي يتضمنها الكتاب، فأغلبها فردي، ويركز على دور المتعلم في الملاحظة والفهم استناداً إلى النماذج والأمثلة المقدمة، وارتباطاً بمواد تعليمية أخرى كالنحو مثلاً، إضافة إلى تركيزها على قياس الجانب الكمي منها.

كتاب المطالعة والنصوص للصف التاسع

لم تتجاوز النصوص في هذا الكتاب الأساليب التقليدية المعروفة قديماً المعتمدة على الكم المعرفي والتلقي السلبي والاستظهار والحفظ الذي يفضي إلى النسيان دون إتاحة أية فرصة لمشاركة الطالب/ـة ومساهمته/ها الفاعلة في اكتشاف المعلومة والبناء عليها والاستنتاج منها. فيما جرت محاولة استدراك ذلك من خلال الجانب التطبيقي المتمثل في الأنشطة والتمارين التي تتطلب البحث والتقصي، والاستفادة من القدرات والمهارات الفردية، ما يقود إلى إعمال العقل والتزام التحليل، وإن كان بحاجة إلى تدريب ذهني كان بالإمكان أن يوفره متن النص الأصلي.

ويتضح، أيضاً، من النصوص، على الرغم من جدّة بعضها، كتلك التي تتناول القانون الدولي وقضايا البيئة، أن اعتماد أسلوب التلقين وكأنه هدف مقصود لذاته، سينتهي بطالباتنا وطلابنا إلى تبني أفكار نمطية، لا تأبه بقيمة الرأي الآخر ولا تتقبله بسهولة، كما تتطلع إلى الحقيقة المطلقة باعتبارها المبتغى الأكبر، وهذا كله يعطّل وعي ملكة التفكير الحر المبدع/ الخلاّق وينمي الأفكار الأحادية المتعصبة ذات المشكلات المعقدة والمتعددة.

لم تتجاوز النصوص في هذا الكتاب الأساليب التقليدية المعروفة قديماً المعتمدة على الكم المعرفي والتلقي السلبي والاستظهار والحفظ الذي يفضي إلى النسيان دون إتاحة أية فرصة لمشاركة الطالب/ـة ومساهمته/ها الفاعلة في اكتشاف المعلومة والبناء عليها والاستنتاج منها.

كما أن نصوص الكتاب تشهد حالة من عدم التوازن ما بين النصوص التراثية وتلك المستمدة من الثقافات العالمية والمعاصرة، كما تشهد حالة غياب كبيرة لمساحة واسعة من الثقافة العربية والفلسطينية الحديثة والمعاصرة.. والكثير من رموز وإنتاجات هذه الثقافة على تعددها وتنوعها، وفي هذا إيحاء بأفضلية عصر على عصر ونصوص على أخرى ومبدعين على غيرهم.

كذلك تعطي النصوص المختارة حضوراً متألقاً للرجل، فيما تم تغييب المرأة عن النصوص باستثناء نص واحد قديم ومستهلك ويلغي كينونة المرأة تماماً، وفقرة في نص آخر عن الأمثال الشعبية، ما يؤكد الثقافة الذكورية ويعزز من الأفكار التقليدية حول أدوار كل من الجنسين في المجتمع والثقافة وتكرس للامساواة بينهما.

إن غياب البيئة الوطنية المعاصرة عن النصوص، يجعل الطالبات/الطلاب يعيشون حالة من الازدواجية الفكرية والنفسية بين ما يقرؤونه في كتبهم المدرسية، وما يواجهونه في حياتهم اليومية وما يتطلعون إليه من إشباع لحاجاتهم المعرفية والنفسية والاجتماعية.

دنيا الأمل إسماعيل – كاتبة وصحافية – غزة